تلقي النص من سلطة اللغة إلى تفعيل الكتابة .

Text recieving from language authority to activating writing

الرتبة: د . وسيلة مرباح
المركز الجامعي عبد الحفيظ بوالصوف (الجزائر)
معهد الآداب واللغات
البريد الالكتروني: merbahwassi@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2021/01/10 – تاريخ القبول: 2021/10/10 – تاريخ النشر: 2021/12/31

Summary

Metaphysics emerged as a philosophy that seeks an original source for each discourse, thereby establishing knowledge of absolute truth and closed truth, and producing an ideal moment in which the signifier fully absorbs its signified, and this is by being biasing towards the centrality of reason and the present voice. As a result of this complete disregard for the self and the role of writing, the postmodern trend emerged. It attempts to respond to the Western philosophical tradition prevailing from Socrates to Heidegger through Rousseau and de Saussure. Thus, the text no longer remains a mere linguistic activity, but it is a world of enormous intertwined and leaked relations in which different times meet.

key words : Text, language, writing, disassembling, interpretation

الملخص :

ظهرت الميتافيزيقا كفلسفة تبحث عن مبدأ أصلي لكل خطاب مؤسِّسة بذلك معرفة ذات حقيقة مطلقة ومغلقة في الآن ذاته، ومنتِجة لحظة مثالية يستوعب فيها الدال مدلوله استيعابا كاملا، وذلك بتحيزها لمركزية العقل، وللصوت الحاضر الممتلئ في حضوره.

ونتيجة لهذا التجاهل التام للذات ولدور الكتابة برز تيار ما بعد الحداثة، مُحاولا الرد على التقليد الفلسفي الغربي السائد منذ سقراط إلى هايدغر مرورا بـ روسو ودي سوسير، وبذلك لم يعد النص ذلك النشاط اللغوي فحسب، وإنما هو عالم مهول من العلاقات المتشابكة المتسرِّبة والمترسِّبة، وطبقات زمانية مكبوتة مكتوبة يلتقي فيها الزمن بكل أبعاده. ومن هنا تأتي هذه المداخلة لتبرز جدلية الرأيين، وتوضيح المقولات التي تؤدي إلى تفعيل الكتابة.

الكلمات المفتاحية: النص، اللغة، الكتابة، التأويل، التفكيك .

مقدمة:

تجلت الميتافيزيقا كفلسفة في الحضور وكمبحث وجودي عن مبدأ خام –أصلي– لكل خطاب منتجة معرفة "مطلقة ومغلقة"، كما أنها انتصرت للصوت الممتلئ في حضوره وحاضره على حساب الكتابة، وعدت الكتابة ذات بعد أحادي وظيفتها ضمان تواصل الأحداث وحفظها وما هي إلا وعاء لصب المعنى، من هنا فإن تيار ما بعد الحداثة يرى بأن الميتافيزيقا تجاهلت الكتابة بوصفها شرطا لوجود الصوت كجسد مقروء وكخطاب محفوظ بل هي عند أصحاب هذا التيار تتجاوز ذلك بل وتتجاوز مفهوم اللغة، ويرون أن تسمية (لغة) كانت تطلق على كل من الفعل والحركة والفكر والتفكير والوعي واللاوعي والتجربة والعاطفة، الخ ...وجاز لهم اليوم بأن يطلقوا تسمية "الكتابة "على هذه الأشياء جميعا وسواها :لا لتسمية الحركات الجسمانية التي تستدعيها الكتابة الحروفية أو التصويرية أو الإيديوغرافية فحسب، وإنما كذلك على كل ما يجعلها ممكنة، ومن ثمّ، وفي ما وراء الجانب الدال، على الجانب المدلول عليه نفسه، وعبر هذا كله.

ويعد هذا الرأي المابعد حداثي ردا جريئا على التقليد الفلسفي الغربي منذ سقراط إلى هايدغر مرورا بروسو ودي سوسير ذلك التقليد الذي يرى أن الكتابة محكومة بهاجس الميتافيزيقا وهي نسخة أو ملحق مقابل الأصل المنطوق، وهي فكرة تبناها معظم فلاسفة الميتافيزيقا الذين يرجعون المعنى إلى مركزية العقل والصوت ورأوا بأن الكتابة خطر محدق بالذاكرة [أفلاطون] وإضعاف للعقل وتهديد للكلام[روسو]، وتلويث لصفاء اللغة [سوسير] وأن الكلام أداة من أدوات تنشيط الذاكرة وتقويتها ، وجعلها أكثر حيوية في الاحتفاظ بالحقيقة وثبات المعنى.

ومن هنا فإن النص لم يعد نشاطا لغويا فحسب وإنما هو عالم مهول من العلاقات المتشابكة، يلتقي فيه الزمن بكل أبعاده، حيث يتأسس في رحم الماضي وينبثق في الحاضر ويؤهل نفسه كإمكانية مستقبلية للتداخل مع نصوص آتية– على حد قول الغذامي –ليس الهدف منه تعرية مضامينه من طرف قارئه فحسب، بقدر ما يكون القصد منه أيضا تفعيل أهم ما يظهره وما يضمره من خطابات مركزية وأخرى هامشية، لتفضي عملية التفعيل هذه إلى انبثاق نص آخر هو" نص النص"، وتتعاضد شبكة من الآليات لتأسس مصداقية لهذه العملية، يتقاسمها كل من النص والقارئ، فالنص بشفراته من مستويات بنيوية، وأشكال سياقية، وصنوف معرفية يحرض القارئ على الانفعال، فيقترح ويغير ويؤول فينتج

وفي ظل هذا التجاوز للمفاهيم وقع أيضا تجاوزا على مستوى الإجراءات كما ستوضحه هذه المداخلة التي ستقف على محورين أساسيين هما :

المحور الأول: محور معرفي: سنتطرق فيه إلى مبررات الانتقال من العقل إلى الذات، ومن اليقين إلى الشك، ومن اللغة إلى الكتابة.

المحور الإجرائي: سنعالج فيه استراتيجية تفعيل المقولات الهامشية منها : تفعيل الكتابة، ومقولة الاختلاف وتناسل المعاني، ولعبة الدوال وإرجاء الدلالة .

محاولة الإجابة عن الإشكالية الآتية :هل التلقي اللغوي وحده كاف للإحاطة بمقاصد النص؟ وهل تعني لا نهائية الكتابة بالضرورة لا نهائية النص؟

تمهيد:

قامت طروحات تيار ما بعد الحداثة بنصنصة التجربة الإنسانية، وقامت هذه النصنصة على البحث عن مرجعيتها في ذاتها، وليس البحث عن التوافقات بين المنطوقات ومرجعياتها الخارجية وتجاوز المقولات الميتافيزيقية "حيث أصبح العمل الفكري مجرد ابتكار لغات أو خطابات أو أشكال في التعبير تقطع صلتها مع الثنائيات المانوية [الجبلية] التي انحبس الفكر الغربي فيها ومع دوافع التأسيس على قاعدة ميتافيزيقية (ثابتة وساكنة) أو متعالية (ذاتوية أو تمركزية)"[1].

اتجهت هذه الرؤية إلى صرف النظر عن الخطابات المركزية ذات المرجعية الإنسانية أو اللاهوتية والتمسك النصي "وهذا النص أو الخطاب كبديل عن الإنسان أو التمثل أو المدلول لا يحيل إلى شيء آخر سوى إلى ذاته، محققا بذلك "مرجعيته الذاتية" ويحيل دوما إلى نفسه في سيرورة لانهائية"[2].وفيما يأتي توضيح لذلك :

1-نصنصة التجربة الإنسانية:

انطلقت هذه النصنصة من فكرة مؤداها أن النص لا صلة له بسواه " وما هو إلا مجرد "لعب" بألفاظ اللغة لا ينبغي أن يكون له ناسج ينسجه ولا كاتب يكتبه، ولكنه مجرد معالج رمزي أو ضمني، لا مرجعية يرجع إليها من الظواهر والمظاهر الاجتماعية والسياسية أو غيرها، فهو نص كأنه ينشئ نفسه بنفسه، فهو لا يحيل إذن إلا على نفسه على لغته خصوصا".[3]

والسبب المباشر لإعطاء مصداقية لذات النص هو العجز الطبيعي لمعرفة العالم أو الواقع في ذاته أو ماهيته، ويستحيل معه التماهي أو القبض على دلالته أو الإشارة إلى أجزائه "يتحول الواقع إذن إلى لغة تحيل دوما إلى ذاتها، وتكمن معقوليتها أو علة وجودها في "لغويتها" بالذات دون الإحالة إلى علة قصوى [ميتافيزيقا] أو عالم خارجي"[4]. ومعنى ذلك أن مصداقية الإحالة لا وجود لها خارج اللغة ومرد ذلك هو الشك في مقولات الميتافيزيقا

وعدم الاطمئنان إليها، ذلك لأن الميتافيزيقا تحمل كل ما هو استسلام وتسليم وتصديق وكل ما هو خضوع للحقيقة المطلقة، لكن عندما نحيل إلى اللغة دون قبول بأي إحالة إضافية إلا المرجعية الذاتية فهذا يقودنا إلى الاختلاف وبالضرورة اللانهائية، أي لا وجود لحقيقة ثابتة .

إن التفكيكية عملت بداية على تفكيك الفكرة التي يسميها دريدا باسم الوهم السائد في ميتافيزيقا الغرب "التي مفادها أن العقل يستطيع بصورة أو أخرى التخلص من اللغة، ويصل بغيرها إلى حقيقة أو نظرية خالصة مؤكدة للذات"[5] .

ولهذه الفكرة امتداد أفلاطوني، وذلك عندما طرد الشعراء من جمهوريته المثالية، وجعل العقل يحول دون الوقوع في خداعات البلاغة الزائفة، وتوارث هذا المبدأ جل الفلاسفة العقليين من بعده ووظفوا –على اختلافهم– "مقولة العقل بطريقة ما ورائية لاهوتية بتعاملهم مع العقل بوصفه جوهرا يسبق تحققه، أو حقيقة تتعالى على التجربة وتتجاوزها، ولا يعود ذلك إلى طبيعة لاهوتية في النظرة بقدر ما يعود إلى فعل الكلام نفسه"[6] ،ولهذا لا ينفك خطاب العقل عن تأليه الأشياء وتغييب العالم، إنه الوجه الآخر للخطاب الإلهي، إذ كلاهما يقوم على تغييب الحوادث والوقائع واعتبارها مجرد شواهد أو علامات "ففي الخطاب اللاهوتي تعتبر الأشياء والكائنات مجرد شواهد تشهد على وجود الكائن المفارق، وفي خطاب العقل تعتبر الملفوظات والوقائع الخطابية مجرد علامات تنبئ بوجود المعاني البكر في النفس أو بالمفاهيم المحضة في الذهن"[7] ، إلا أن دريدا يرى بأن الفلسفة بالرغم من طابعها العقلي ومحوها الطابع النصوصي فإننا نقرأ علامات ذلك الجهاد في المناطق المظلمة من مثل الاستعارة واستراتيجيات البلاغة، "إن دريدا إنما يرفض التسليم للفلسفة بذلك الوضع المتميز التي تزعم فيه بأنها الوعاء الأمثل للعقل والمنطق، ويواجه دريدا ذلك الاتجاه ليفرض عليه موضوع دراسته"[8] ، وبهذه الفكرة اقتربت كتابات دريدا إلى النقد الأدبي أكثر منها إلى الفلسفة "وتتركز هذه الكتابات على افتراض أن طرق التحليل البلاغي التي تطبق إلى يومنا هذا في النصوص الأدبية بصورة خاصة لا يمكن الاستغناء عنها أو التخلص منها عند قراءة أي نوع من أنواع الكلام الأكاديمي بما في ذلك الفلسفة نفسها "[9] .

وهذه الفكرة تدعو إلى قراءة النصوص والتعامل معها على السواء، فلا يؤخذ الفرق بين النصوص في مضامينها ومحتوياتها مأخذ الجد، وإنما الذي يؤخذ بعين الاعتبار كيفية انبناء النص وطريقة تشكله وكيفية اشتغاله، وهنا يمكن الجمع بين النص الفلسفي والنص الأدبي، إذ كلاهما يشكل نصا لغويا، كلاهما يتألف من وقائع خطابية، صحيح أن لكل نص آلياته الخاصة إلا أن النصوص الفلسفية والشعرية تشترك على اختلافها في استخدامها لتقنيات مجازية بما في ذلك النص الفلسفي، "وهذا ما كشف عنه "نيتشه" إذ بيّن أن النص الفلسفي ليس مجرد خطاب برهاني بل هو خطاب منسوج من الاستعارات"[10] ، والوقوف عند الميزة المجازية ليس بغرض الكشف عن أدواتها التشكيلية،

وأبعادها الجمالية، بقدر استنطاق كنهها، والبحث في أبعادها الغائرة، إذ بقدر عمقها المجازي بقدر ما تمنح النص ديمومة، وقدرة على استيعاب عدد أكبر من القراء .

بل وهناك من يذهب إلى أبعد من ذلك ويعد النصوص العلمية أيضا لا تخلو من خاصية المجاز ومن هؤلاء "علي حرب" الذي يقول :"ويمكن أن أخطو خطوة أوسع فأقول حتى النص العلمي لا يخلو هو الآخر من استعارات ومجازات، وبالإمكان إيراد أمثلة على ذلك من علم الحياة، أو علم الاجتماع، فمن يستعرض مؤلفا في تاريخ علم الحياة، يكتشف أن وصف الكائن الحي كان يتم في كل مرحلة أو طور باستعارة من الاستعارات، كأن يوصف مرة بالمنظومة العضوية وأخرى بالجهاز أو الآلة وثالثة بالعمارة والبناء، وأما اليوم فإنه يوصف بالشيفرة والرسالة وهذا من شأن علم الاجتماع"[11].

فالنص ليس ذلك الذي ينقل حقيقة ما ويتطابق معها، وإنما تكمن أهميته في ذاته، في حقيقته هو، أي في رؤيته للوجود وفي آلية إنتاجه للمعنى وفي كيفية تعامله مع الحقيقة أو في طريقة كلامه عن الأشياء، ومن هنا فإن هذه الخصائص مجتمعة تجعل النص يتيح لنا أن نتحدث عن تناقضاته واختلافاته بل توتراته، وبذلك فإن النصوص لم تعد تخضع لمعايير بلاغية تستحسنها أو تستهجنها، ولا إلى معايير لغوية تصوبها أو تخطئها، بل يتجاوز كل المعايير، فالنص القوي هو أقوى من محاولات تصنيفه، أي يصعب حصره أو اختزاله إلى مجرد مذهب أو مدرسة أو معتقد أو اتجاه، وأن النص لا يحتاج إلى من يشرحه ويتعلم منه بقدر ما يحتاج إلى من يقرأه قراءة فاعلة منتجة تقرأ فيه ما لم يقرأ من قبل .

2- نص الحقيقة أم حقيقة النص :

إن للنص كينونته وحقيقته، فهو واقعة خطابية لها نصيبها من الوجود، وهذه الفكرة طرحها سبينوزا عند تطرقه لموضوعة الحقيقة من باب نقد العلامة "فيهتدي إلى دعوى مؤداها أن الحقيقة لا تدرك إلا عبر تأثيراتها ونتائجها، لا عبر ما يسمى بالعلامات التي تسبقها، وإن هذه العلامات زيادة على كونها من دون تأثير تعد زائدة على الحقيقة وبالتالي خارجة عنها، وفي هذا السياق لا شيء يعلم بالحقيقة غير الحقيقة ذاتها"[12]، وهذا معناه أنه ميدان معرفي ومنطقة من مناطق العمل الفكري، يقتضي النظر إليه دون إحالته إلى خلفية مرجعية وبتره حتى عن مؤلفه، وتفرض علينا كينونته هذه أن نقرأه بمعزل عن سياقات خارجية ويغدو هو وحده المرجع "بمعنى أنه يفرض نفسه علينا ويدعونا إلى الرجوع إليه وقراءته باستمرار، ونحن لا نقرأه لأنه يعكس الواقع ويحيل إليه، فالنص الذي يعكس الواقع لا أهمية له لأنه ينتهي بانتهاء الواقع الذي يتحدث عنه"[13] .فالنص يتجاوز أن يكون مرآة يعكس عصرا ما، وإنما يشغل هذه المسافة بين ما يقع وما يمكن أن يقع، وإذا سلمنا بمقولة النص الواقعي فهذا إغفال لحقيقة النص من

جهة، وطمس للواقع من جهة أخرى، وإنما النص يخلق واقعه ويمتلك وقائعه وهو بذلك يشكل إمكانا للتفكير أو وسطا للفهم أو ملتقى للحقائق . فشتان أن تكون للحقيقة نص وللنص حقيقة، فأما الأولى تزيل النص وتنهيه بانتهاء الوقائع التي هي إجراءات الحقيقة، وأما الثانية وهي أن تكون للنص حقيقة فهذا يعني أنه يخلق نفسه و ويحتوي حقيقته و يبطن دلالته . فعندما نسلّم بمقولة :"إن للحقيقة نصا" فيغدو النص أداة للحقيقة وليس له كينونة، وأننا نتوسل في قراءتنا له آليتي الشرح والتفسير من أجل بلوغ غاية فهم المقاصد وشرح المضامين، وعندها ينتهي النص، أما إذا انطلقنا من مقولة "للنص حقيقة" فمعناه أن النص يخلق حقيقته ويمتلك وقائعيته "فعلينا أن نتعامل معه كما نتعامل مع الحدث، أي نحاول استكشاف أبعاده أو رصد احتمالاته، نعالجه ونسعى إلى التحرر من وطأته أو نفكر باستثماره وتوظيفه"[14] ،ومن هذا المنطلق "تظل التفكيكية مثل أي نشاط من نشاطات القراءة مرتبطة ارتباطا وثيقا بالنص الذي تتحراه، ولا يمكن لمثل هذا النشاط أبدا أن يصبح نظاما مستقلا للمفاهيم العامة المنغلقة على نفسها"[15] ، من هنا تتفاوت النصوص بتفاوت قدرتها على الصمود أمام القارئ، ومعيار ذلك قدرتها على التعالي عن أي محاولات القولبة والاحتواء .

إن استراتيجية التفكيك عند دريدا تتبنى مقولة "حقيقة النص" وعملت على "هدم ميتافيزيقا الحضور عبر تشخيص أمراض فكر غربي متمركز حول ذاته يقصي الهامش والخارج والمشتق ويلوذ بالمركز والداخل والأصلي"[16]، وضمن هذا الهدم ينبثق البناء وذلك بإعادة قراءة الفكر الغربي وإعادة النظر في مفاهيمه التي تأسس عليها كخطاب ميتافيزيقي مثل: (الحضور، الحقيقة، الأصل، الطبيعة ...) وتحترس هذه الاستراتيجة من الوقوع في فخ التقابلات الثنائية (خطأ / صواب ، خير / شر، روح/ مادة ...)، مقترحة بدائل أخرى تتمثل في سلسلة من المفردات ذات المعاني المزدوجة مثل "الأثر" الذي يشير في الوقت ذاته إلى امحاء الشيء وبقائه محفوظا و "الإضافة" التي تتضاف من أجل تكملة أو سد نقص، وبذلك "سيتم قلب النظام الهرمي الذي أقامته الميتافيزيقا الغربية والانفتاح على الهوامش والكشف عن الخلفيات الثاوية وراء البديهيات والمسلمات التي اعتمد عليها الفكر الغربي في بناء أنساقه وفي بلورة مؤسساته المختلفة"[17] .

ثانيا– فعالية المقولات الاستراتيجية :

انبثق التفكيك من أرضية وصفت بالجدل المنهجي ذلك أن المنهجيات التقليدية –ونخص بذلك المنهج البنوي– طمح لأن يؤسس لمشروع علمي يهدف إلى مقاربة الخطاب ووصفه "وأن يقنن للنقد ويضع له الضوابط والأحكام

الموضوعية، وحينما فشل المشروع البنيوي في تقديم مشروع مقنع وشامل لتفسير الدلالة اتجه نقد ما بعد البنيوية إلى البديل المضاد"[18] .

ومن تجليات هذا البديل المضاد أنه " خرّب كل شيء في التقاليد تقريبا، وشك في الأفكار الموروثة عن العلامات، واللغة والنص والسياق، والمؤلف والقارئ، ودور التاريخ، وعملية التفسير وأشكال الكتابة النقدية"[19] ويعلن عن العملية المتمثلة في تحليل "جسم" بإرجاعه إلى عناصره المكونة له"[20]. وعملية الهدم والبناء هذه تهدف إلى " تصديع بنية الخطاب، مهما كان جنسه ونوعه، وتفحّص ما تخفيه تلك البنية من شبكة دلالية"[21]. ولبلوغ هذا الهدف فعّلت استراتيجية التفكيك مجموعة من المقولات نذكر منها :

1- فعالية الكتابة و/أو تلاوة القراء:

ترى القراءة الكلاسيكية أن الكتابة تعمل فقط على حفظ المعنى لا على إنتاجه، وهذا الدور الثانوي للكتابة في نظر الفلسفة الميتافيزيقية أعطى في المقابل مصداقية للقراءة كفعل له صلاحية إلغاء المادة المكتوبة، ومن ثم إلغاء مفعول الكتابة "إن القراءة الكلاسيكية لا ترى في النص المكتوب نسقا يفيض بالمعاني أو تكثيفا لعدة تأويلات، وإنما كلمة ولفظا، واللفظ عندها هو الحد الذي يحصر المعنى، من ستعتبر الكتابة وسيلة لقراءة المعنى الذي تحفظه الكتابة وتحميه ضد عبث الأقدار وفعل الزمن"[22].

إلا أن تيار ما بعد الحداثة رأى بأن الكتابة تستوعب وظائف عدة، يقول دريدا:" نلاحظ أن تسمية (لغة) كانت تطلق على كل من الفعل والحركة والفكر والتفكير والوعي واللاوعي والتجربة والعاطفة، الخ... وها نحن اليوم نواجه نزوعا لإطلاق تسمية "الكتابة" على هذه الأشياء جميعا وسواها: لا لتسمية الحركات الجسمانية التي تستدعيها الكتابة الحروفية أو التصويرية أو الإيديوغرافية[23]فحسب، وإنما كذلك على كل ما يجعلها ممكنة، ومن ثمّ، وفي ما وراء الجانب الدال، على الجانب المدلول عليه نفسه، وعبر هذا كله. فهي تطلق على كل ما يدفع إلى خط شيء بعامة، أكان حروفيا أم لا، وحتى إذا كان ما ينشره هذا الخط في الفضاء غريبا على نظام المحتوى صوت [البشري] : كأن يكون سينمائيا مثلا، أو رقصيا، أو نحتيا، ...الخ هكذا سنقدر اليوم أن نتحدث عن كتابة رياضية (من الرياضة) وبثقة أكبر عن كتابة عسكرية أو سياسية إذا ما نحن فكرنا بالتقنيات المتحكمة اليوم، بهذه الميادين، وهذا كله لا يوصف النسق التدويني المرتبط بهذه الفعاليات ارتباطا ثانويا، فحسب، وإنما كذلك محتوى هذه الفعاليات نفسها وجوهرها"[24] ،والكتابة بهذا المفهوم فإنها تحتوي اللغة بمفهومها البنائي والذي ينص على أن اللغة هي شبكة خلافية للمعنى، وأن العلاقة بين الدال والمدلول هي علاقة واحد لواحد "فتشابك الإشارة والتعبير هو تشابك أصلي: إذا كانت الإشارة لا تضيف إلى التعبير أي شيء، وإذا كان التعبير لا يضيف إلى المعنى أي شيء، فلا يمكننا

الحديث عن وجود "إضافة أصلية"، اجتماعهما جاء فقط ليعوض النقص ويعيد امتلاء الحاضر"[25] ، لأن كل من الكلمة والمفهوم إنما تحكمهما السمات الفارقة التي لا تكون فيها الخلافات الصوتية أو خلافات المعنى سوى محددات للمعنى فقط، واللغة بهذا المعنى "تعتمد على بناء منظم للخلافات التي لا تسمح إلا بمدى قليل من العناصر اللغوية التي ترمز وتدل على مستودع واسع كبير من المعاني الصالحة للتحقيق والتداول"[26].

ويعد هذا المفهوم الذي قدمه دريدا للكتابة ردا جريئا على التقليد الفلسفي الغربي منذ سقراط إلى هايدغر مرورا بروسو ودي سوسير ذلك التقليد الذي يرى أن الكتابة محكومة بهاجس الميتافيزيقا وهي نسخة أو ملحق مقابل الأصل المنطوق، وهي فكرة تبناها معظم فلاسفة الميتافيزيقا الذين يرجعون المعنى إلى مركزية العقل والصوت ورأوا بأن "الكتابة خطرا محدقا بالذاكرة [أفلاطون] وإضعافا للعقل وتهديدا للكلام [روسو]، وتلويثا لصفاء اللغة [سوسير] وأن الكلام أداة من أدوات تنشيط الذاكرة وتقويتها وجعلها أكثر حيوية في الاحتفاظ بالحقيقة، وثبات المعنى"[27].

إلا أن دريدا يرى أن ما تستلزمه الرابطة الحميمية بين الصوت والمعنى هو" تحقيق داخلي وعاجل للمعنى لا ينتج ولا يسلّم نفسه بدون الاحتفاظ بفهم شفاف وكامل، والكتابة على العكس من ذلك إنما تدمر ذلك المثل الأعلى للحضور الذاتي الخالص"[28].بالإضافة إلى "أن المعنى في اللغة المنطوقة إنما يَحضر المتكلم من خلال شكل من أشكال المسح الذاتي الداخلي الذي يضمن مواءمة [تكييف] فطرية كاملة بين كل من القصد والسياق"[29].

هذا عن أولوية الكتابة في الممارسة التفكيكية، أما عن وظيفتها فهي تتداخل مع القراءة والتلاوة، ذلك أننا عندما ننطلق من مفهوم النص على" أنه عالم مهول من العلاقات المتشابكة، يلتقي فيه الزمن بكل أبعاده، حيث يتأسس في رحم الماضي وينبثق في الحاضر ويؤهل نفسه كإمكانية مستقبلية للتداخل مع نصوص آتية"[30] ، فإننا سنصل إلى أن النص كنسيج مكتوب –مكبوت يستغني عن كاتبه مكتفيا بذاته، لأن ذاته مشكّلة من نصوص متسربة في قاع تاريخ الكتابة، والتفكيك في حديثه عن فكرة استقلال النص عن كاتبه ليس فقط لأن النص المكتوب هو نسق مكبوت من نصوص مترسبة ومتسربة إلى بعضها البعض" ولكن لأن الكاتب هو "هوية" متشظية وأصداء متوالية لصوت نصوص متشابكة"[31].

إن الكاتب من منظور التفكيك فهو (كاتب وقارئ) (مركز وهامش) "الكاتب في اللحظة ذاتها هو التالي (المعنى) والكاتب (التعبير) والقارئ (الإشارة)، فهو يتلو ما يستحضره من معان وما يتمثله من أفكار ليكتبها ويثبتها ثم ليقرأها كمكتوب جاهز للاستهلاك، فهناك ثلاثة أشخاص في الفاعل نفسه، تتشابك وظائف هؤلاء الأشخاص في اللحظة نفسها (تلاوة، كتابة، قراءة)، مثلما يتشابك المعنى والتعبير والإشارة"[32].

وتداخل هذه الوظائف يستلزم نتيجة خلع صفة الكتابة عن الكاتب وإنما هو مجرد طبقة تتضاف إلى طبقات النص، وخلع صفة القراءة عن القارئ، فهو قارئ مجهول أو قارئ "س" على اعتبار أن أي قراءة لا يمكن أن تلم بكل طبقات النص، "وبغياب الكاتب يغيب القارئ، فلا كاتب ولا قارئ أمام "وحشية" النص واستقلاليته، يصبح النص عنكبوتا يلف الكاتب–القارئ في ثنايا نسيجه"[33] .

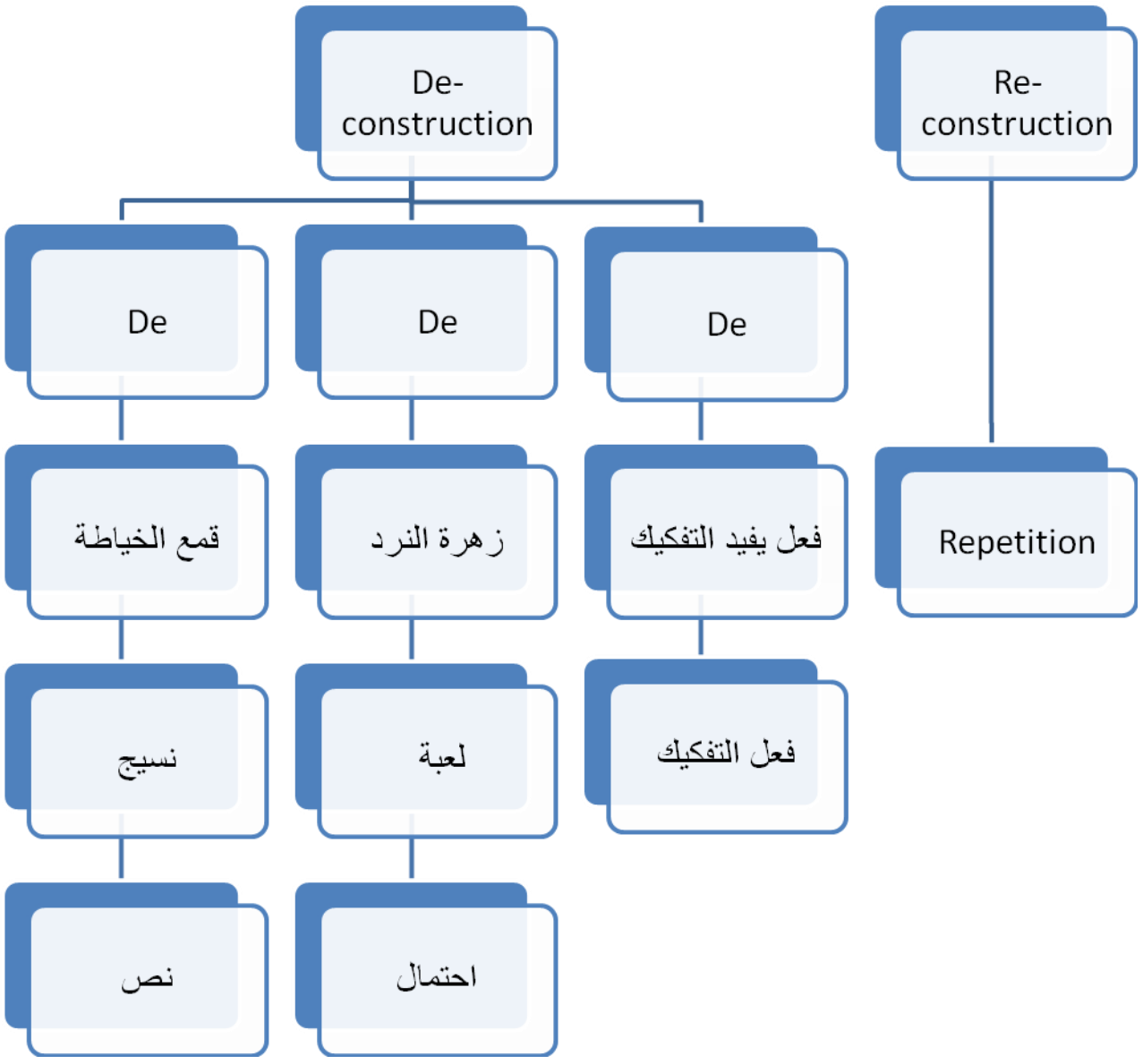

يوضح هذا المخطط هوية النص " البادئة De من De–construction هي "نص كنسيج" و"لعبة كاحتمال" لعبة المعنى والتعبير والإشارة وتشابكها، هي بالمعنى الجيولوجي للكلمة وجود طبقات مترسبة ينبغي نحتها وإزاحتها وهي بالمعنى الاستراتيجي للكلمة أن هذه الطبقات هي طبقات منسوجة ومتشابكة بحيث يعتذر الكشف عن "لحمة النسيج"

و"السلسلة" فالنص هو إذن نسيج مركب من إشارات وتعبيرات ودلالات متداخلة تستدعي التفكيك والعزل لفحص بنياتها وجذورها المتضاربة"[34] .

2- فعالية الاختلاف وتناسل المعاني:

إن اللغة من منظور التفكيك "سلسلة لا متناهية من المفردات التي لا أصول لها بعيدا عن سياق اللغة، وأن الكلمات تتميز باختلاف كل منها عن الكلمة الأخرى"[35] ،الآخر فطبقا لهذا المفهوم يكون كل معنى مؤجلا بشكل لانهائي "فكل كلمة في اللغة تقودنا إلى أخرى في النظام الدلالي، دون التمكن من الوقوف النهائي على معنى محدد"[36]. وهذه الفكرة الأخيرة خطّط لها "دريدا" من أجل الحد من هيمنة حضور المدلول، فالقارئ ينقّب عن مدلول محدد لأنه واقع تحت سطوة الحضور وخاضع لها، ولهذا "فإن دريدا يريد للخطاب وللخطاب الأدبي بخاصة أن يكون تيارا غير متناه من الدلالات وبوساطة الكلمات فقط يمكن التأشير إلى كلمة دون أخرى، دون التقيد بمعنى محدد، ويقود هذا إلى توالد المعاني لا بسبب من تقرير الدالات لها، بل من اختلافاتها المتواصلة مع المعاني الأخرى، ولما كانت هذه المعاني، لا تعرف الاستقرار والثبات، فإنها تبقى مؤجلة ضمن نظام الاختلاف، وهي محكومة بحركة حرة أفقية وعمودية دونما توقع نهاية محددة لها"[37].

إن دلالة الاختلاف هي دلالة مزدوجة تحمل معنى "الاختلاف" و"التأجيل" معا، أي لا تظل أسيرة فكرة التوازي فإن هذه الدلالة دلالة ملتحمة موحية وغير مقررة .

إن النص عند دريدا لا حدود له ولا مركز، فهو متعدد المعاني بشكل مطلق لأن يستحيل الاتفاق على معنى أو معيار متجاوز، ولذا فإن معانيه تكون بعدد القراء، والنص في حد ذاته "هو خلاصة لما لا يحصى من النصوص قبله، ويضع "ليتش" لهذا معادلة نظرية تقول:" إن التاريخ الكلي لأي اقتباس (أي تاريخ كل كلمة في النص) مضروبا في عدد الكلمات في النص يساوي المجموع الكمي للنصوص المتداخلة مع هذا النص الذي بين يدينا، ولأننا لا نملك القدرة على تقرير كامل لتاريخ أي كلمة، فإن قيمة هذه المعادلة كما يقول ليتش تنبع من اقتراحها بأن النصوص المتداخلة لا حصر لها ومعها تأتي الإمكانات الاقتباسية لتشريح النص"[38].

بمعنى أن النص نشاط كتابي مختلف الدوال "فهو مجرد مجال عشوائي للعب الدوال ورقصها والشفرات المتداخلة، فالمعاني التي يتوصل لها القراء لا يربطها مركز وحد وليست مستقرة(...) ويؤدي هذا إلى نوع من السيولة وإلى إخفاء الحقيقة وتعدد المعاني"[39] ، إن غاية الممارسة التفكيكية ليست فك بنية النص وفضح مقاصده، "وإنما يحاول أن يكشف التوترات والتناقضات داخل النص وتعدد المعنى والانفتاح الكامل، بحيث يفقد النص حدوده الثابتة ويصبح جزءا من الصيرورة ولعب الدوال ومن ثم تختفي الثنائيات والأصول الثابتة والحقيقة والميتافيزيقا" [40].

خاتمة:

هدّمت استراتيجية التفكيك عند دريدا ميتافيزيقا الحضور، بتقويض امتدادات الفكر الغربي الممتد من سقراط إلى هايدغر الذي يلوذ بالمركز والداخل والأصلي ويمنح الأسبقية للكلام والصوت، ويجعل الكتابة مجرد حامل للأصل المنطوق، وأيضا كسر فكرة الثنائيات الميتافيزيقية (داخل/خارج، مركز/هامش، روح/مادة،...)، والدعوة إلى إعادة بناء فكر جديد وفق استراتيجية لا تنظر إلى الهامش باعتباره خارج المركز، بل باعتباره النقطة التي يتخلل عندها المركز، ويبدأ عندها الاختلاف، وذلك بإعادة النظر في مفهوم الكتابة وإعطائها مفهوما متجذرا يتجاوز اللغة. وتفعيل الدال بتجاوزه النظرة الأحادية (دال واحد مدلول واحد حاضر)، بفضل مقولة الاختلاف التي تؤدي دور إثارة الدوال لتنتج مدلولات لا نهائية، وتجعل المعنى لا يحيل إلى العقل كمصدر وحيد للمعرفة الحقيقية، بل يحيل إلى معنى آخر والآخر إلى آخر، بحيث لا نعود نمثل أمام معنى واحد وحقيقة واحدة بل نمثل أمام "اختلاف" مطلق .

إن اللغة من منظور التفكيك سلسلة لا متناهية من المفردات التي لا أصول لها بعيدا عن سياق اللغة، وأن الكلمات تتميز باختلاف كل منها عن الكلمة الأخرى. وطبقا لهذا المفهوم يكون كل معنى مؤجلا بشكل لانهائي .

الهوامش:

[1]– تأويلات وتفكيكات: محمد شوقي الزين، منشورات الاختلاف، الجزائر، دط، دت، ص 198.

[2]– تأويلات وتفكيكات: سبق ذكره، ص 199.

[3]. نظرية النص الأدبي :عبد الملك مرتاض ، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، ط 2، 2010، ص 118 .

[4]– تأويلات وتفكيكات ، سبق ذكره، ص 199 .

[5]– التفكيكية النظرية والممارسة: كريستوف نوريس، تر: صبري محمد حسن، دار المريخ للنشر، الرياض، المملكة العربية السعودية، دط، 1998م، ص 57 .

[6]. نقد النص: علي حرب، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، دط ، دت، ص 10 .

[7]– نفسه: الصفحة نفسها .

[8]– التفكيكية النظرية والممارسة: مرجع سبق ذكره، ص 10 .

[9]– نفسه: ص ص 57، 58 .

[10]– نقد النص: مرجع سبق ذكره، ص 11.

[11]نفسه: ص 12 .

[12]. التأويل والقراءة والكتابة شذرات فلسفية: محمد راضي، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، دط، 2015، ص 9 .

[13]– نقد النص: مرجع سبق ذكره، ص 12 .

[14]– نقد النص : مرجع سبق ذكره، ص 13 .

[15]– التفكيكية النظرية والممارسة : مرجع سبق ذكره، ص 80 .

[16]– عمر التاور : استراتيجية التفكيك عند دريدا الهدم والبناء، مجلة تبيين، العدد :9، 2014م، ص 29 .

[17]– استراتيجية نفكيك الميتافيزيقا: جاك دريدا، تر: عز الدين الخطابي، إفريقيا الشرق، المغرب، دط ، دت، ص 7 .

[18]– – المرايا المحدبة من البنيوية إلى التفكيك: عبد العزيز حمودة، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت، عدد 232، أفريل 1998م، ص 155 .

[19]– المرجع نفسه: ص 254.

[20]– مدخل إلى فلسفة جاك دريدا: تر: إدريس كثير وعز الدين الخطابي، إفريقيا الشرق، ط2، 1994، ص 13 .

[21]– معرفة الآخر: مدخل إلى المناهج النقدية الحديثة، عبد الله إبراهيم وآخرون، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط 2، 1996، ص 113 .

[22]– التأويل والقراءة والكتابة شذرات فلسفية: سبق ذكره، ص 18 .

[23]– نسبة إلى "الإيديوغرام" وهو تمثيل الكلمات برسوم وصور (المترجم) ص 107 الكتابة والاختلاف

[24]– الكتابة والاختلاف: مصدر سبق ذكره، ص 107 .

[25]– تأويلات وتفكيكات: مرجع سبق ذكره، ص 206 .

[26]– التفكيكية النظرية والممارسة: مرجع سبق ذكره، 69 .

[27]– سلطة الذات :عرقة الذات بالآخر بين المنظورين التأويلي والتفكيكي، عز الدين الخطابي، رؤى تربوية، العدد 32، دت، ص 34 .

[28]– التفكيكية النظرية والممارسة: مرجع سبق ذكره: ص 76 .

[29]– المرجع نفسه: ص 66 .

[30]– الخطيئة والتكفير: عبد الله الغذامي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط6، 2006، ص 17.

[31]– تأويلات وتفكيكات: مرجع سبق ذكره، ص 209 .

[32]– تأويلات وتفكيكات : سبق ذكره، ص 209

[33]– المرجع نفسه: ص 210 .

[34]– تأويلات وتفكيكات: مرجع سبق ذكره، ص 208 .

[35]– معرفة الآخر: مرجع سبق ذكره، ص 119 .

[36]– معرفة الآخر : مرجع سبق ذكره، ص 119 .

[37]– المرجع نفسه: ص ص 119، 120 .

[38]– الخطيئة والتكفير: مرجع سبق ذكره، ص 35 .

[39]– جاك دريدا والتفكيك: أحمد عبد الحليم عطية، دار الفارابي، بيروت، لبنان، ط1، 2010م، ص 164 .

[40]– المرجع نفسه: ص 172 .

قائمة المصادر والمراجع:

1– أحمد عبد الحليم عطية: جاك دريدا والتفكيك، ط1، دار الفارابي، بيروت، لبنان، 2010م .

2– جاك دريدا: الكتابة والاختلاف، تر: كاظم جهاد،دط، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، دت.

3– جاك دريدا: استراتيجية تفكيك الميتافيزيقا،تر: عز الدين الخطابي، إفؤيقيا الشرق، المغرب، دت .

4– جاك دريدا: في علم الكتابة، تر: أنور مغيث، منى طلبة، ط2، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2008م .

5- عبد العزيز حمودة : المرايا المحدبة ،العدد 232 المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت أفريل 1998م .

6- عبد الله إبراهيم وآخرون: معرفة الآخر، مدخل إلى المناهج النقدية الحديثة،ط2، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، 1996 .

7- عبد الملك مرتاض: نظرية النص الأدبي، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، ط2، 2010م .

8- عز الدين الخطابي: سلطة الذات، علاقة الذات بالآخر بين المنظورين التأويلي والتفكيكي، رؤى تربوية العدد 32، دت .

9- علي حرب: نقد النص، المركز الثقافي العربي،دط، الدار البيضاء، المغرب، دت .

10- كريستوف نوريس: التفكيكية النظرية والممارسة ، تر: صبري محمد حسن، دط، دار المريخ للنشر، الرياض، المملكة العربية السعودية، 1989م .

11- محمد راضي: التأويل والقراءة والكتابة، شذرات فلسفية، عالم الكتب الحديث، إربد الأردن، دط، 2015م .

12- محمد شوقي الزين : تأويلات وتفكيكات: ،دط، منشورات الاختلاف، الجزائر، دت .